

العادات الهندوكية في كيرالا القديمة

د/محمد عابد . يو. بي^١

الملخص

تمثل العادات النشاط البشري من طقوس أو تقاليد تستمد في أغلب الأحيان من فكر أو عقيدة المجتمع وتدخل العادات في كثير من نواحي الحياة. والعادات جمع عادة والعادة في اللغة هي ما يعتاده الإنسان أي يعود آلية مرارا وتكرارا^٢. وهي أنماط معتادة ومكتسبة ومتعلمة ومتكررة للفرد من السلوك، وتحدث ما قبل الشعور وليس بتفكير شعوري بشكل مباشر أو ملاحظ لأنها لا تلتقي مع تحليل الذات. فالعادات والتقاليد الاجتماعية هي أنماط سلوكية تخص جماعة ما، حيث تتعلمها شفهيًا من الجماعة السابقة مثل تقليد أو احتفال بعيد معين.

وإن الديانة الهندوكية وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي عبارة عن العقائد والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة. كتاب "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" للشيخ زين الدين بن محمد الغزالي المخدم الفناني المليباري الذي ألف أولا في تاريخ كيرالا هو المصدر الأصلي والمرجع الأساسي لدراسة العادات والتقاليد التي كانت في قديم كيرالا. وهذا المرجع التاريخي الوصفي تناول تاريخ مختلف سكان كيرالا وعلى الخصوص الهنادكة وعاداتها ونقاليدهما أساليب حياتها واختلاف طبقاتها وشتى وظائفها. هذه الورقة محاولة الالتفات إلى العادات والتقاليد لأهالي الديانة الهندوكية في كيرالا القديمة.

الهندوكية وطبقاتها

إن الديانة الهندوكية تمثل معظم أهالي الهند وهي التي فيها الطبقات والوظائف الخاصة والتقاليد والعادات. الديانة الهندوكية منقسمة إلى أربع طبقات. ولكل منها وظائف خاصة بهم، البراهمة هم ذوو طبقة عالية، كان ينظر إليهم كأنهم آلهة، أما كشتريا فهم طبقة المقاتلين وأما ويشارفتناولوا التجارة والزراعة وتربية الحيوانات كما قام شودرار وهم المنبوذون بالمهن الحقيرة مثل غسل الملابس وتنظيف الجلود والكناسة^٣.

والطبقات الأدنى كانت تواجه شتى المشاكل والصعوبات في حياتهم حتى في الزواج لأن الزواج من الطبقات الأعلى أو الطبقات المختلفة لا تقبل ولا تلائم. وكانوا يعملون الأعمال الحقيرة والفعائل الرخيصة

^١ أستاذ مساعد، قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها، كلية فاروق ، كاليكوت ، كيرالا.

^٢ المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق ش م م ، بيروت ، لبنان ، ط : ٣٧، ISBN 2-7214-2207-3، ص: ٥٣٦

^٣ الدكتور جمال الدين الفاروقي ، دراسات في الثقافة والحضارة، مكتبة الهدى ، ٢٠١٠، ص: ٢٨

لمعيشتهم^١. تعتبر البراهمة أعلى جنس الهندوسية وكانوا يفتخرون به، وكانوا يبعدون الأجناس الأخرى تجنباً عن الالتماس بين الأعلى والأدنى وهناك بينهم حدود معلومة^٢.

وكان المكان العالي في مجتمع الهنادكة للبراهمة ونظام الطبقة في الهند مشجع والعيشة ضدها تؤدي إلى القتل أيضاً. والعبودية الطبقية والعبودية الزراعية كانت تؤثر في المجالات الاجتماعية والمجالات الثقافية^٣.

العادات والتقاليد

إن كتاب "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" أهم الكتب "الثلاثية" العربية في مقاومة الإستعمار بكيرالا في القرون الوسطى فيه بعض من العادات والأخلاق لقد انعكست أجل الانعكاس. وانطبعت هذه العادات والأخلاق على الحياة بكيرالا في القرون الوسطى. وكتاب "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" يتحدث بعض العادات والأخلاق التي شاعت آنذاك في مليبار. ولكن هذه العادات كلها تنتمي إلى هنادكة مليبار وليست هذه العادات موجودة في غيرها من الأقطار وعلاوة على هذا هذه العادات كلها غريبة وهي أيضاً عادات معظمها لا يقبلها مجتمع مثقف.

منها:

إن المليباريين هم أحبوا راعهم كثيراً، فإن لقي مصرعه في الحرب قاتلوا أعداءه حتى يقتلوا جميعهم ويخربوا بلاد خصمه.

"إذا قتل راعهم في الحرب يتهجم عساكره وبلاده على خصمه حتى يقتلوا جميعهم أو يخربوا مملكة خصمه جميعاً"^٤.

وإن المليباريين لا يخذعون أعداءهم في الحرب، فيحددون تاريخاً خاصاً لها لا يخالفونه ويرون الخداع في ذلك هواناً.

"إنهم لا يخذعون أعداءهم في الحروب فيعينون يوماً معلوماً للحرب لا يخالفونه ويرون الخداع في ذلك هواناً"^٥.

إذا مات كبيرهم كالأب والأم والأخ الكبير بين البراهمة والنيار لا يقربون نسوتهم سنة ويجتنبون أكل الحيوانات، والتنبول، وحلق الشعر، وقلم الأظفار وذلك قرينة إلى الأموات.

¹ Sathish Chandra, Medieval India, DC Books, Kottayam, 2008, ISBN 978-81-264-1752-0, p 149

² Prof. A. Sreedhara Meon, Keralacharithram, DC Books, Kottayam, August 2007, ISBN 81-264-1588-6, P 103

³ Malayinkeezh Gopalakrishnan, Keralam Lokacharithrathilude, The State Institute of Languages, Thiruvananthapuram, Feb: 2012, ISBN 978-81-7638-088-1, P 27

^٤ الشيخ زين الدين المخدم ، تحفة المجاهدين ، مكتبة الهدى، كاليكوت، ١٩٩٢، ص: ٣١
^٥ المصدر السابق ، ص: ٣١

"إذا مات كبيرهم كالأب والأم وكبير الأخوة بالنسبة إلى البراهمة والنجارين وأمثالهم والأم والخال وكبير الأخوة بالنسبة إلى النيار ومن قاربهم يجتنبون سنة كاملة غشيان النساء وأكل الحيوانات، والتنبول، وحلق الشعر، وقلم الأظفار ولا يخالفون هذه العادة ويرون ذلك قربة إلى الأموات".^١

والنيار لا يورثون أولادهم مالا وملكا وبين الهندوس الآخرين كالبراهمة فالإرث فيهم للأولاد.

"ان الإرث في طوائف النيار ومن قاربهم لإخوتهم من الأم وأولاد أخواتهم أو خالاتهم أو قرابتهم من جهة الأم، لا للأولاد مالا وملكا".^٢

والبراهمة والصاغة والنجارون والحدادون والفازانين والسماكون وغيرهم لا يورثون أولادهم مالا وملكا وبين الهندوس الآخرين فالإرث فيهم للأولاد.

"أما البراهمة والصاغة والنجارون والحدادون والفازانين والسماكون وغيرهم فالإرث فيهم للأولاد ولهم النكاح".^٣

النكاح في طوائف النيار ليس إلا عقد خيط في عنق المرأة في أول مرة ثم الأمر على حسب الحال. "النكاح بين النيار هو عقد خيط في عنق المرأة في أول مرة ثم الأمر على حسب الحال، العاقد وغيره سواء".^٤

في البراهمة ينكح أكبر الإخوة فقط لثلاث أكثر الورثة إلا إذا تحقق أنه لا يولد له فينكح غيره، وينضم الباقيون إلى نسوان النيار من غير نكاح. ويجتمع على امرأة واحدة بالتناوب كل ليلة أكثر من واحد من الرجال بين النيار، ويتبعهم بعض الهندوس الآخرين في هذا التقليد.

"أما البراهمة فإذا كانوا أخوة لا ينكح إلا أكبرهم سناً ما لم يتحقق أنه لا يولد له والباقيون لا ينكحون لثلاث أكثر الورثة فيقع الخلاف بينهم فينضم إلى نسوان النيار من غير نكاح. وإذا حصل لأحدهم من أحدهن الولد فلا يورثون وإذا تحقق أن الأكبر لا يولد له نكح غيره".^٥ "يجتمع على امرأة واحدة من طوائف النيار ومن قاربهم اثنان أو أربعة أو أكثر ويتناوب كل منهم ليلة كما يقسم الزوج المسلم زوجاته ووقوع العداوة والشحناء بينهم قليل، وتبعهم الصاغة والنجارون والحدادون

^١ المصدر السابق ، ص : ٣١

^٢ المصدر السابق ، ص : ٣١

^٣ المصدر السابق ، ص : ٣١

^٤ المصدر السابق ، ص : ٣١

^٥ المصدر السابق ، ص : ٣١

والفازانيون والسماكون وغيرهم في أن يجتمع على مرأة أكثر من واحد ولكن من الإخوة والا القرابة لئلا يتفرق الورثة ويقل الخلاف بينهم في الإرث".^١

إنهم لا يسترون أبدانهم إلا السواتين وشيئا مما يلهمما وباقي البدن مكشوف، ويستوي في ذلك الذكور والإناث والملوك والكبراء. ويوجد الحجاب بين نساء البراهمة. "إنهم كاشفون أبدانهم ولا يسترون إلا السواتين وشيئا مما يلهمما وباقي البدن مكشوف، ويستوي في ذلك الذكور والإناث والملوك والكبراء. ولا يحتجب نسوانهم عن أحد الا نسوان البراهمة فلهن احتجاب أما النيار فيزيبنون نسوانهم بالحلي والثياب النفيسة ويخرجون في مجامعهم الكبيرة حتى يشاهدهن الرجال ويستحسنونهن".^٢

وهم يملكون اذا كان هو أكبر سنا ان لم يستحقوا به. "لا يملك فيهم الا من هو أكبر سنا ولو بلحظة وان كان أحمق أو أعمى أو ضعيفا أو من أولاد الخالات. ولم يسمع أن أحدا من الاخوة أو أولاد الخالات قتل من هو أكبر منه سنا بتولي الملك عجلا".^٣ و"اذا انقطع الورثة أو قتلوا يأخذون أجنبيا ولو كبيرا ويجعلون وارثا في مقام الولد أو الأخ أو ولد الأخت ثم لا يفرقون بينه وبين الاصلي في الإرث والملك".^٤

وانهم التزموا بعضا من التكاليفات لا يعدلون عنها لأنهم منقسمون إلى أجناس عديدة. منهم الأعلى والأدنى وما بينهما واذا التمس بين الأعلى والأدنى وكذا القرب إلى حد معلوم عندهم بالنسبة إلى الدينين فلا بد للأعلى للغسل ولا يجوزون له أكل الطعام قبل الغسل فلو أقبله انحط عن مرتبته فلا يدخلونه معهم في مرتبتهم العليا ولا خلاص له الا بالهرب إلى موضع لا يعرف بحاله. منها:

"انهم التزموا تكاليفات كثيرة لا يعدلون عنها لأنهم منقسمون إلى أجناس عديدة. منهم الأعلى والأدنى وما بينهما واذا وقع التماس بين الأعلى والأدنى وكذا القرب إلى حد معلوم عندهم بالنسبة إلى الدينين فلا بد للأعلى من الغسل ولا يجوزون له أكل الطعام قبل الغسل فلو أقبله انحط عن مرتبتهم العليا ولا خلاص له الا بالهرب إلى موضع لا يعرف بحاله والا أخذه راعي البلد وباعه لمن هو أدنى منه".^٥

^١ المصدر السابق، ص: ٣٢

^٢ المصدر السابق، ص: ٣٢

^٣ المصدر السابق، ص: ٣٢

^٤ المصدر السابق، ص: ٣٢

^٥ المصدر السابق، ص: ٣٣

"لا يجوزون للأعلى أن يأكل طعاما طبخه الأدنى فان أكل انحط عن مرتبته فلا يدخلونه معهم في مرتبتهم العليا ولا خلاص له الا بالهرب إلى موضع لا يعرف بحاله"^١.

"واذا وقعت حجرة واحد من الدينين على احدى النساء اللاتي فوق مرتبته في ليالي معروفة عندهم من السنة انحطت عن مرتبتها ان لم يستصحبها ذكرولو حملا فيما يأخذها الوالي ويبيعها أو تسلم أو تصير نصرانية أو جوكية"^٢.

الخاتمة

على الرغم بأن الديانة الهندوكية تضم القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها هي كانت متميزة بغرائب التقاليد والعادات. لقد أتى "تحفة المجاهدين" حجما كبيرا من العادات الغربية التي شاعت بين هنادكة مليبار. وهذه العادات المنتمية إلى هنادكة مليبار ليست موجودة في غيرها من الاقطار وعلاوة على هذا هذه العادات كلها غريبة وهي أيضا عادات معظمها لا يقبلها مجتمع مثقف.

المصادر والمراجع

١. الدكتور جمال الدين الفاروقي ، دراسات في الثقافة والحضارة ، مكتبة الهدى ، ٢٠١٠.
٢. الشيخ زين الدين المخدوم ، تحفة المجاهدين ، مكتبة الهدى، كاليكوت، ١٩٩٢.
٣. المنجد في اللغة والأعلام ، دارالمشرق . ش م م ، ط : ٣٧ ، بيروت، لبنان.
٤. Malayinkeezh Gopalakrishnan, Keralam Lokacharithrathilude (Kerala through the World History), The State Institute of Languages, Thiruvananthapuram, Feb. 2012, ISBN 978-81-7638-088-1.
٥. Prof. A. Sreedhara Menon, Keralacharithram, DC Books, Kottayam, August 2007, ISBN 81-264-1588-6.
٦. Sathish Chandra, Medieval India, DC Books, Kottayam, 2008, ISBN 978-81-264-1752-0.



^١ المصدر السابق، ص: ٣٣

^٢ المصدر السابق، ص: ٣٤